الوالي، ويسوقون يسوع إلى ديوانه بوصفه مجرماً سياسياً وعدواً لقيصر.سيذهبون إلى دار الولاية ليس كقضاة يطلبون تنفيذ حكم أصدروه بقوة صلاحية التي لهم، بل كمّدعين ينتظرون منه الحكم الفصل، كأن الدعوى لم تُمس بعد.

حكم بيلاطس اليهودية إلى عام 36 للمسيح، عينه طيباريوس قيصر ثم عزله عقاباً له على مذبحة في بلاد السامرة أمر بدون أي مبرر. والتاريخ يصف لنا نفسيته، كما نتبينها من خلال سطور الإنجيل: ضعف في الإرادة، وطبع حاد يبلغ في القسوة حدّ الشراسة الوحشية أحياناً، لا قيمة للدم في عينيه، متقلب الراين صغير النفس، لا يهمه غير رضى القيصر منه، أياً كان ثمن هذا الرضى.

لم يعجب بيلاطس عندما رأى اليهود صباح الجمعة، يهرولون إليه باكراً في ضوضاء وشغب، يتقدمهم أعضاء المحفل، لان قائد الفرقة الرومانية التي اشتركت في إلقاء القبض على يسوع في بستان الزيتون، كان ولا ريب قد أطلعه على الأمر.

بلغ اليهود قصر الولاية فلم يدخلوه، لان دخول بيت وثني نجاسة تمتد إلى سبعة أيام، بحسب تقاليدهم، والنجس لا يشترك في أكل الحمل الفصحي. وكانوا آنذاك في تهيئة الفصح، وسيذبح الحمل ويؤكل مساء ذلك اليوم، كما يشير يوحنا.

ولم يشأ بيلاطس أن يجرح شعور اليهود بمناسبة أعظم عيد ديني وقومي لهم، فخرج هو نفسه إليهم وقال: أية شكاية توردون على هذا الرجل؟ وعرف رؤساء اليهود أن الفجور الذي يصدم فيصعق فجأة ويكاد يفرض الإرادة فرضاً شرط لا بدّ منه لكسب الدعوى، لان القانون والعدالة، إذا تركا لهما الميدان حراً، مال بيلاطس نحو يسوع. فأجابوا: لو لم يكن فاعل سوء لما أسلمناه إليك! وظن بيلاطس أن السوء الذي يعنون، والذي أثارهم إلى هذا الحد،